# فوكو في عصر الهيمنة الرقميّة... حين تتحوّل الخوارزميّات إلى نظام استعماري جديد

25 مارس 2025

فكر وتحليل

10 دقيقة قراءة

# فوكو في عصر الهيمنة الرقميّة... حين تتحوّل الخوارزميّات إلى نظام استعماري جديد

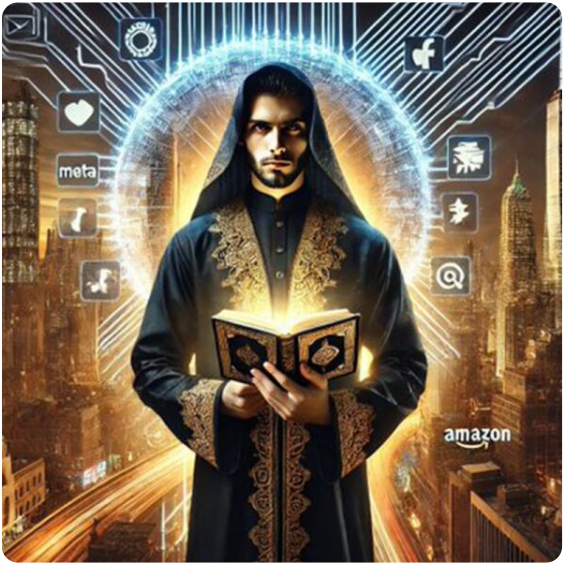

حين شرّح فوكو جسد السلطة الحديثة، كان يتتبع أوردتها في السجون والمستشفيات والمدارس. لكنّه لم يتخيّل أنّ قلبها سينتقل يوماً إلى جهاز بحجم الكفّ، يحمله المليارات طوعاً كل صباح، ويمنحونه مفاتيح أبواب وعيهم الداخليّة.

لو عاد فوكو إلى عالمنا اليوم، لاكتشف أنّ السلطة التي توقّع تشتّتها في شبكة علاقات لامركزيّة قد تركّزت، على نحو غير مسبوق، في أيدي حفنة من شركات التقنية الأمريكيّة العملاقة. هذه الشركات التي تتحكّم، ليس فقط بما نقرأ ونشاهد، بل بما أصبح ممكناً التفكير فيه والتعبير عنه – أي بما يسمّيه فوكو "الخطاب" نفسه – تعمل تحت عباءة الإدارة

الأمريكيّة وأجهزتها الاستخباراتيّة.

ذاك أنّ الهيمنة الرقميّة باتت الوجه الأكثر فاعليّة للاستعمار الأمريكيّ، حيث أصبحت غوغل وميتا وأمازون ومايكروسوفت ... أدوات نفوذ أشدّ تأثيراً من الأساطيل العسكريّة. فالخوارزميّات التي تدير معظم حياتنا الرقميّة تُصمّم في وادي السيليكون وتل أبيب وفق رؤى ومصالح غربيّة خالصة، وكما كشفت وثائق إدوارد سنودن وويكيليكس، فإنّها غالباً ما تكون خاضعة لشروط وكالة الأمن القوميّ الأمريكيّة (NSA) والبنتاغون وأجهزة المخابرات الإسرائيليّة.

والحال أنّ ما نشهده اليوم ليس مجرّد مراقبة، بل استعمار للوعي يتغلغل في الفجوات الصغيرة للذات. فالذكاء الاصطناعيّ لا يكتفي

بـالوقوف وراء النـافذة، بـل يعيـد تأثيـث غـرف العقـل نفسـه، ويُصـمّم ديكـور الرغبـات، ويرسـم لوحـة الاختيـارات التـي نظنّهـا حـرّة. إنّـه تجسـيد كامـل لمـا أسـماه فوكـو "البيوسـلطة"، لكنّـه تجاوزهـا إلـى مـا يمكـن تسـميته "سـلطة الخوارزميّات" التي لا تكتفي بضبط الجسد، بل تبرمج النفس ذاتها.

وقد نجحت شوشانا زوبوف في كتابها المؤثّر "عصـر رأسـماليّة المراقبـة" (2019) فـي تفكيـك هـذا النظـام الجديـد، موضّحـة كيـف أنّ هـذه الشركات "لم تعد تبيع خدمات، بل تتاجر بتنبّؤات عـن سـلوك البشـر". إنّهـا تنشـئ مـا أسـمته "الأسـواق السـلوكيّة"، حيـث تُسـتخرج بيانـات الشعـوب كمـا تُسـتخرج المعـادن النفيسـة مـن

المنـاجم، ثـمّ تُعـاد تـدويرها لفـرض نمـاذج اسـتهلاكيّة وسـلوكيّة تحقّـق أرباحـاً هائلـة وتكرّس الهيمنة في الوقت ذاته.

شركـات وادي السـيليكون تشبـه ذلـك المعـالج النفسـي الـذي يقنعـك بالتحـدث عـن أعمـق أسرارك، ثم يبيع تسجيلات جلساتك للمعلنين، ويرسـل نسـخاً منهـا للأجهـزة الاسـتخباراتية، مـع ابتسامة عريضة ونصائح للعيش بسعادة! إنّها تمـارس دوراً مزدوجـاً بارعـاً: مـن ناحيـة، تقـدّم نفسـها للعـالم بوصـفها حاملـة لـواء الحرّيّـة والديمقراطيّة، ومن ناحية أخرى، تعمل كذراع طويلـة للأجنـدة الأمريكيّـة والإسـرائيليّة فـي المنطقـة العربيّـة. وهنـا يصـحّ اسـتذكار كلمـات جوليـان أسـانج الشهيـرة: "فيسـبوك أخطـر أداة

تجسّس اخترعها الإنسان"، وذلك لأنّ المستخدمين أنفسهم هم من يزوّدونه بمعلوماتهم طواعيةً ويمنحونه السلطة عليهم برضاهم.

ولا يخفى على المتابع الدور المتعاظم لإسرائيل في هذه المنظومة العالميّة، فمن برمجيّات التجسّس كـ"بيغاسوس" التي تنتجها شركة NSO الإسرائيليّة وتبيعها للأنظمة القمعيّة حول العالم، إلى الدور المركزيّ للخبراء الإسرائيليّين في تطوير تقنيات المراقبة والتحليل السلوكيّ، نجد أنّ تل أبيب باتت شريكاً رئيساً في المشروع الاستعماريّ الرقميّ، مستثمرة خبرتها الطويلة في مراقبة الفلسطينيّين وتحليل بياناتهم.

وفي المقابل، تسعى الصين إلى تطوير نظام رقمـيّ بـديل عـبر شركـات كعملاق التكنولوجيـا "هــواوي" أو منصّــات كـــ"تيك تــوك" و"وي تشات". لكنّ هذا النموذج يواجه حرباً شرسة من الإدارة الأمريكيّـة التـي توظّـف الحجـج الأمنيّـة لإقصـاء المنافسـين الصـينيّين وضمـان اسـتمرار احتكارها للفضاء الرقميّ العالميّ. وحرب أمريكا ضـد التكنولوجيـا الصـينية ليسـت سـوى مشهـد من مسرحية قديمة: المستعمِر الذي يخشى أن تُستخدم أدواته ضدّه، فيصرخ "لصّ!" بينما يده لا تزال في جيب ضحيته.

وكما يشير بنجامين براتون في كتابه "الطبقة: عـن البرمجيّـات والسـيادة" (2016)، فـإنّ البنيـة الرقميّة المعاصرة (الذكاء الاصطناعيّ، البيانات،

المنصّات) تشكّل الآن طبقة سياديّة جديدة تتجاوز الدولة الوطنيّة، ممّا يعني أنّنا لسنا أمام تطوّر تقنيّ فحسب، بل أمام إعادة تشكيل لمفهوم السيادة نفسه.

ولم تعد مسألة الاستعمار الرقميّ محض تنظير، فقد كشفت دراسات معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) ومركز راند (RAND) للأبحاث كيف يُستخدم الذكاء الاصطناعيّ كأداة جيوسياسيّة في التأثير على الرأي العام وتوجيه الانتخابات والتجسّس الاقتصاديّ. وليس من المبالغة اعتبار هذه المنصّات أدوات استخباراتيّة متقدّمة تستغلّ البيانات الشخصيّة للتحكّم في تدفّق المعلومات داخل المجتمعات المستهدفة.

وقد شهدنا بأنفسنا كيف تمّ استخدام المنصّات الرقميّة كأدوات لزعزعة استقرار الدول العربيّة خلال ما سُمّي بـ"الربيع العربيّ". فقد كشفت الوثائق المسرّبة أنّ وزارة الخارجيّة الأمريكيّة درّبت ما أسمتهم "ناشطين" على استخدام وسائل التواصل الاجتماعيّ لتنظيم الاحتجاجات، في إطار استراتيجيّتها لتغيير الأنظمة التي لا تتماشى مع مصالحها.

أمّا التهديد الأكبر اليوم فيتمثّل في تقنيات الذكاء الاصطناعيّ المتقدّمة، التي يتمّ تطويرها بشكل شبه حصريّ في مختبرات أمريكيّة (وبدرجة أقلّ صينيّة). هذه التقنية التي ستشكّل مستقبل البشريّة تُبرمج وفق القيم والمصالح الغربيّة، ممّا يعني تكريس

الهيمنة الثقافيّة والمعرفيّة الأمريكيّة لعقود قادمة.

وما يزيد من خطورة الوضع هو الارتباط العضويّ بين شركات التكنولوجيا الأمريكيّة وأجهزة الأمن القوميّ. فجوجل وأمازون ومايكروسوفت وبالينديير... تقدّم خدمات الحوسبة السحابيّة والذكاء الاصطناعيّ للبنتاغون ووكالة المخابرات المركزيّة في عقود بمليارات الدولارات، ممّا يكشف أنّ الحدود بين السلطة الخاصّة والسلطة العامّة قد تلاشت في هذا المجال.

والأخطر من ذلك كلّه هو ما يمكن تسميته، مستعيرين من بيير بورديو، بـ"الهيمنة الرمزيّة" التي تمارسها هذه المنظومة. لقد تسلّلت

السلطة الرقمية إلى المعاجم نفسها، فأصبحت "الخصوصية" تعني "الموافقة على الشروط والأحكام دون قراءتها"، و"حرية التعبير" تعني "الحق في الصراخ داخل غرفة عازلة للصوت"، و"المجتمع" يعني "قطيع من المستخدمين المرقّمين في انتظار الحلب الرقمي التالي". إنّنا نواجه نظاماً استعمارياً يحاول السيطرة على وعينا الجمعيّ بأكمله، عبر فرض منظومة معرفيّة ولغويّة وقيميّة محدّدة.

في هذا السياق، تبرز ضرورة تطوير بدائل وطنيّة وإقليميّة للتقنيات الغربيّة. وقد نجحت روسيا، رغم العقوبات، في بناء منظومة رقميّة مستقلّة نسبيّاً عبر يانديكس وVK، كما استطاعت الصين توفير بدائل كاملة لخدمات

غوغل وفيسبوك وتويتر. هذه النماذج، رغم محدوديّتها وإشكاليّاتها، تثبت إمكانيّة مقاومة الاحتكار الرقميّ الأمريكيّ.

بيد أنّ العالم العربيّ يواجه تحدّياً مضاعفاً: فمن جهة، يتعرّض للهيمنة الرقميّة الأمريكيّة، ومن جهة أخرى، تفتقر معظم دوله للقدرات التقنيّة والبشريّة اللازمة لبناء بدائل فعّالة. عالمنا العربي اليوم يشبه تلك القبيلة التي تلتقط صور سيلفي مع سفن الغزاة، غافلة عن أنها ستغادر الشاطئ محمّلة بأثمن ما تملك: بياناتها وهويتها وقدرتها على صياغة مستقبلها بيديها.

ولذلك، فإنّ خارطة طريق للمقاومة الرقميّة العربيّة تستدعي خمسة محاور أساسيّة:

أوّلاً، تطوير سياسات وطنيّة لحوكمة البيانات

وحمايتها من الاستغلال الأجنبيّ، عبر تشريعات متقدّمة للخصوصيّة وإنشاء بنى تحتيّة وطنيّة لتخزين البيانات ومعالجتها.

ثانياً، تأسيس مراكز بحثيّة عربيّة للذكاء الاصطناعيّ، تتعاون فيها الدول العربيّة وتدعمها بموارد مستدامة، وتركّز على تطوير حلول تتوافق مع خصوصيّاتنا الثقافيّة واللغويّة.

ثالثاً، بناء تحالفات استراتيجيّة مع القوى التكنولوجيّة الصاعدة في الشرق، خاصّة الصين وروسيا والهند، تقوم على تبادل الخبرات والتقنيات، بما يخلق توازناً في مواجهة الهيمنة الغربيّة.

رابعاً، تطوير سياسات تعليميّة تركّز على المهارات الرقميّة المتقدّمة وثقافة الأمن

الرقميّ، وتمكين الشباب العربيّ ليكون منتجاً للتكنولوجيا وليس مجرّد مستهلك لها.

خامساً، تأسيس مرصد رقميّ عربيّ مستقلّ يتولّى تحليل الخطاب الرقميّ العالميّ، ورصد الاختراقات السيبرانيّة، وبناء إطار قانونيّ عربيّ موحّد لحقوق البيانات والخصوصيّة، يحاكي بجرأة النموذج الأوروبيّ (GDPR) ويتجاوزه في مواضع عديدة.

إنّ الاستعمار الرقميّ، كأيّ استعمار سابق، لا يمكن مواجهته إلاّ بإرادة التحرّر والاستقلال. والخطوة الأولى في هذا الطريق هي الوعي بأنّ ما نستخدمه من منصّات وتطبيقات ليس مجرّد أدوات محايدة، بل يحمل في طيّاته مشروع هيمنة شامل. وإذا استعرنا مقولة فوكو

الشهيـرة عـن أنّ "المعرفـة سـلطة"، فعلينـا أن ندرك أنّ السيطرة على البنية التحتيّة للمعرفة في العصر الرقميّ هي أقصى درجات السلطة التي يمكن ممارستها في عالم اليوم.

المعركـة الـدائرة اليـوم ليسـت بيـن تقنيـات متنافسة، بل بين نموذجين للوجود: أحدهما يراك مستهلكاً وموضوعـاً للدراسة والتلاعـب، والآخـر يـراك ذاتـاً حـرّة تستحق أن ترسم حـدود عالمها الرقمي بنفسها. وبين النموذجين يقف العربي اليـوم - بهـاتفه الأمريكـي وتطبيقـاته الصـينية وبيانـاته المسـتباحة - ينتظـر فجـر السـيادة الرقمية التي قد لا تأتي ما لم نغيّر، نحن أولاً، طريقة تفكيرنا في السلطة والمعرفة والهوية.